هوية العراق الحضارية بين العمق التاريخي والتصدع السياسي

أ.م.د ماهر جبار محمد علي

كلية الامام الكاظم (ع) للعلوم الاسلامية

استاذ التاريخ الحديث والمعاصر

المقدمة

كثرت البحوث والدراسات التي تناولت موضوع الهوية الوطنية ونشرت الكثير من المقالات في الصحف والمجلات والمواقع الالكترونية ويقف كل فريق عند بعض النصوص ليبرر وجهات نظره سلبا او ايجابا.

لاشك ان لموضوع الهوية اهميه بالغه وخطيرة لما يترتب عليه من نتائج قد تكون وخيمه او قد لا تكون على الشعب والبلاد لاسيما اذا ما قرأت من مثقفين واصحاب الراي قراءة خاطئة وفي غير محلها نتيجة لحسابات انيه وعاطفيه ومصلحية كرده فعل او لأسباب ايديولوجية او تنفيذا لسياسة خارجية.

مر على تاريخ العراق الحضاري الاف السنين ولا زال هناك من يعتقد ان هذا البلد فيه هويات فرعية غالبة على الهوية الوطنية، وفي العقد الاخير ظهرت للسطح اصوات تدعي العلمية والثقافة لتتصدر المشهد وتسعى بقوة نحو تشرذم المجتمع العراقي متخذين من التاريخ مطية للعبور فوقها بمساندة الماكنة الاعلامية والمشاريع الخارجية والرغبة في زيادة تمزيق البلاد وديمومة الصراعات الناشئة التي حالت دون كشف الحقائق كاملة، على الرغم من ان علم التاريخ نفسه يكشف النظرة السطحية لهؤلاء ولمشاريعهم البائسة.

ولذا يمكن البدء من خلال توجيه عدة اسئلة استفهامية تقودنا لؤال مركزي ، منها : لماذ يختزل العراق بالصراع القومي والمذهبي؟ لماذا التركيز على الفرعيات دون الاصول ؟ لماذا الابتعاد عن حضارات العراق في الحديث عن الوطن والمواطنة ؟ هل العراق ولد عام ١٩٢١ بختم بريطاني ؟ او مع تأسيس البصرة ١٤ هـ ؟ او ربما مع نشوء دولة المناذرة ٢٦٨م ؟ لماذا تاهت هوية العراق على الرغم من قوة مقوماتها ؟ ماهي مقومات او مكونات هوية العراق ؟

ربما من الممكن توجيه سؤال مركزي بعد كل هذه الاسئلة... هل من الممكن العودة الى هوية تجمع كل العراقيين ؟

لقد كان العراق بمختلف مسمياته عبر التاريخ (بلاد وادي الرافدين او ارض السواد او الميزوبوتاميا او بلاد مابين النهرين) وطنا للعراقيين الذين عاشوا فيه منذ الاف السنين من السومريين والاكديين والبابليين والكلدانيين والآمورين والاشوريين والسريان والعرب والاكراد والتركمان والايزيديين والشبك، ولم يكن مجرد ارض تضم مجموعات متفرقة من الطوائف والقوميات والاديان.

من هذه المنطلقات وجهنا عقلنا الباطن وتفكيرنا الظاهر نحو هدف واحد ((هوية العراق الحضارية بين العمق التاريخي والتصدع السياسي)) وهو عنوان البحث الذي دأبنا على كتابته منذ عدة اشهر وكنا نبحث عن من يلملم افكارنا ويوجه انظارنا نحو هدفنا الابدي وهو حب العراق وخدمة هويته اعتزازا به وطنا غاليا بحضارته وارضه وشعبه .

أفرزت خطة البحث عن اربعة محاور تناول الاول منها مقومات الهوية العراقية وازمتها بين الماضي والحاضر من سومر واكد وبابل واشور ونينوى الى البصرة والكوفة وبغداد الى النجف الاشرف الى الوقت الحاضر .

اما الثاني فقد كان هناك استمارة بحث معنونه ((نظرة النخب الى الهوية العراقية)) وهي عبارة عن خمسة اسئلة موجهة الى النخبة الاكاديمية والمثقفة عن حقيقة الهوية ونظرة الشعب اليها، والاسئلة كانت اجابتها محددة بنعم او لا وكالاتي :

١ هل تفتخر بوطنك ؟
٢ هل تؤيد الاقاليم المذهبية ؟
٣ هل تعتقد ان هناك هوية جامعة لكل العراقيين؟
٤ هل التدخل الخارجي سبب في ضياع الهوية العراقية؟
٥ هل تنفع حضارات العراق العريقة ان تكون اساساً لهوية عراقية موحدة ؟

في حين تناول المحور الثالث تأثير الطبقة السياسية على الهوية الوطنية من خلال اراءهم ونظرتهم وايديولوجيتهم وعقدهم وماضيهم وانعكاس ذلك على الناس وتأثرهم به ، في الوقت الذي تناول المبحث الرابع والاخير امكانية العودة الى الهوية الوطنية الجامعة والموحدة مع الاخذ بنظر الاعتبار نماذج للهويات المتكونة حديثا في بعض البلدان ونماذج اخرى تعتز وتحافظ على هويتها الحضارية ولا تتخلى عنها في اصعب الظروف .

لقد اجاب البحث على السؤال المركزي المطروح في البداية واشكالية التي نبحث عن حل لها ، وتتمثل بمدى امكانية العودة الى هوية عراقية جامعة ، وتمثلت الاجابة على السؤال بخارطة طريق اساسية او معايير ومبادي وطنية للوصول الى عقيدة وطنية واحدة جامعة وشاملة ،وذلك خاتمة البحث والاستنتاجات التي توصل لها الباحث.

المحور الاول

ازمة وجود الهوية

عندما نتحدث عن الهويه بشكل عام فلابد اولا ان نعرف ماهي الهويه وما هي مكوناتها الاساسيه ومقوماتها التي تقاس عليها في كل بقعة جغرافية من اجل توضيح مقومات الهوية العراقية ومدى مطابقتها مع اساسيات الهوية بشكلها العام .

مفهوم الهوية

الهوية لغويا هي مأخوذة من "هُوَ.. هُوَ" بمعنى أنها جوهر الشيء، وحقيقته، وفي تعريف الجرجاني في كتابه "التعريفات" ((بأنها الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق)) [١].

فهوية الإنسان ثقافته وحضارته ولغته وتاريخه، هي جوهره وحقيقته، ولما كان في كل شيء ثوابت ومتغيرات فإن هوية الشيء هي ثوابته، تتجلى وتفصح عن ذاتها، دون أن تخلي مكانها لنقيضها، طالما بقيت الذات على قيد الحياة، فهوية أية أمة أو مجتمع هي صفاتها التي تميزها عن باقي الأمم لتعبر عن شخصيتها الحضارية، والهُوية دائماً تجمع ثلاثة عناصر: العقيدة التي توفر رؤية للوجود، واللسان الذي يجري التعبير به، والتراث الثقافي طويل المدى[٢].

في كتاب تلخيص ما بعد الطبيعة يقول الفيلسوف الكبير ابن رشد "أن الهُوية تقال بالترادف للمعنى الذي يطلق على اسم الموجود وهي مشتقة من الهُو كما تشتق الإنسانية من الإنسان" وبهذا يعود بنا إلى مفهوم الهُوية أو الذاتية في منطق أرسطو باعتبارها تماثل الشيء مع ذاته[٣].

المفكر الفرنسي أليكس ميكشيللي اعتبر أن الهوية ((منظومة متكاملة من المعطيات المادية والفيزيائية والنفسية والعناصر التاريخية والمعنوية والاجتماعية تنطوي على نسق من عمليات التكامل المعرفي، وتتميز بوحدتها التي تتجسد في الروح الداخلية التي تنطوي على خاصية الإحساس بالهوية والشعور بها)) [٤].

تكوّن الهوية الفردية

نظرية أريك أريكسون حول تكون الهوية الفردية، هي واحدة من أعمق المساهمات في هذا الموضوع، وقد توصل إليها من خلال بحوث استمرت ثلاثة عقود، وقد عالج أريكسون مسألة الهوية من زاوية سيكولوجية بحتة، والنقطة المركزية في نظرية اريكسون هي أن الهوية لا تتشكل بتأثير المحيط الاجتماعي فقط، مشككاً في النظريات التي تفترض إمكانية خلق هويات صناعية جديدة تماما عبر جهد مخطط، كما شكك في الرؤية الفردانية القائلة بأن الفرد قادر على فصل نفسه عن المحيط واختلاق هوية جديدة مستقلة تماما، وطبقا لنظريته فإن هوية الفرد تتشكل خلال كفاح طويل، يبدأ في مرحلة المراهقة، ويتركز على تركيب عنصرين: أولهما اكتساب القدرة على الإنتاج والعلاقة مع المحيط، وثانيهما الإحساس بالاندماج في عالم معنوي مناسب(٥).

العنصر الأول ضروري لأن الفرد يحتاج إلى تعريف نفسه للمجتمع المحيط به، فحين يسألنا الناس من نحن؟ فإنهم لا يقصدون عادة الاسم الذي نحمله، بل موقعنا في شبكة العلاقات الاجتماعية، أي الدائرة الصغيرة التي ننتمي إليها ضمن الدائرة الاجتماعية الكبرى، والوظيفة التي نقوم بها ضمن هذه الدائرة، ولذلك لا يكتفي الفرد بذكر اسمه الأول بل يضيف إليه اسم العائلة، ثم يلحقه بما يفترض أنه تعريف وظيفي، يشير إلى المهنة أو الهواية أو المكانة، وحين يعرف الإنسان نفسه فإنه يقدم وصفا يتوقع قبوله من جانب المحيط، كتمهيد للاندماج فيه. وهذا يقودنا إلى العنصر الثاني، وهو حاجة الفرد إلى عالم ذي معنى يتيح له التمتع بقدراته (٦).

يمكن للإنسان أن يعيش منعزلا، لكنه لن يتمتع بحياته، ولهذا يسعى جميع الناس إلى مد جسور العلاقة مع جماعة ما، لأن الجانب الأعظم من متعة الحياة، أو السعادة، إنما يتحقق في ظرف التفاعل بين الفرد والآخرين . لا يستطيع الفرد الشعور بالسعادة إذا كان منعزلا.

ان الهوية المجتمعية بشكلها العام تشبه الهوية الشخصية لكل فرد من حيث اسس المعلومات التي تحتويها، ان الهوية الشخصية تعبر عن هويه انسان، تميزه عن الاخرين والذي هو جزء منهم، والهوية القومية تعبر عن هويه امه وتميزها عن هويات الامم الاخرى، وفي كلا الحالتين لابد من مقومات وعناصر لتكوينها، فالفرد يمتلك الاسم والشكل واللغة وبواطن الهوية الاخرى بصمة العين وبصمة الابهام ومميزات الطول والعرض والوزن.

مقومات الهوية الوطنية:

لابد من توافر عدد من المقومات لتثبيت نوعا من الهوية ، اذ لا يمكن ان تكون هناك هويه وطنيه دون ان تتوافر هذه المقومات والتي تعد من الاركان الرئيسة بمفهومها الشامل :

١) مجموعة بشرية
٢) التاريخ المشترك
٣) اللغة المشتركة
٤) الجغرافيا المشتركة
٥) العادات والتقاليد والثقافة
٦) منظومة القيم الأخلاقية والإنسانية

هذه هي المقومات العامة للهويه الوطنية، اذ لا يمكن الحديث عن هويه وطنية دون ان توجد هناك مجموعة بشريه موجوده في منطقه جغرافية محدده وتمتلك تاريخ مشترك ولغة مشتركه فضلا عادات وتقاليد ومنظومة قيم اخلاقية وانسانية، اما النظام السياسي فهو تحصيل حاصل يأخذ شكله بتبدل الزمن ودوران عجلة التاريخ وكل حقبة لها رجالها ونظامها وفي كل حقبة يعتمد النظام على نفس المجموعة البشرية ويستخدم نفس البقعة الجغرافية ويعتمد في طروحاته على نفس منظومة القيم ونفس العادات والتقاليد لدوام بقائه.

اشكال الأنظمة السياسية في الحكم تتبدل مع الزمن كما ذكرنا وهي قابله للتحويل والتبديل والتنوع لذلك فهذا التنوع لا يلغي الهوية المشتركة للبلاد.

مقومات الهوية العراقية

يغوص العراق في تاريخ عميق من الحضارة والابداع على شكل امبراطوريات عظيمة واسعة والسيطرة على مساحات شاسعة من الاراضي ، وفي كل مرة من تلك الحضارات كانت خارطة العراق الحالية جزءا اساسيا من تلك الامبراطوريات وعلى مختلف مسميات الحضارة او الدولة او البلاد من السومرية والاكدية والبابلية والكلدانية والاشورية والعباسية .

ومن هذه المنطلقات ووفقا لمفهوم الهوية الوطنية على ما ذكر في النقاط الستة اعلاه من مقومات، نستطيع ان نسقط كل مقوم على الواقع الحالي .

نبدأ بالسؤال هل ان المجموعة البشرية التي تعيش في العراق الان تمتد جذورها الى تلك الحضارات القديمة نسبا وثقافة ؟ لا يمكن الجزم بذلك، ولكن المنطق والعقل والواقع العملي يؤشر ان هناك تقاطعا كبيرا بين الكثيرين منهم على اساس ان هناك اجيال كثيرة نشأت وهجرات كبيرة حدثت واقوام

عديدة تجولت في المنطقة عموما وان وجد منهم من باقي على نسبه الى الاف السنين فبالتأكيد نسبته واطئة ان لم تكن نادرة او معدومة .

وقد تكون الاجابة تتطلب بحثا علميا دقيقا في الـ DNA وعلمي السيكولوجيا والأنثروبولوجيا ولكن السؤال الذي يبرز الى الذهن اي دولة من دول العالم اليوم لم تعاني من هذه الهجرات عبر الاف السنين ولكن مع ذلك الكثير منهم اثبت هويته الحاضرة اعتمادا على الحاضر ووفقا لثوابت التاريخ ومنهم من حاول ايجاد تاريخ وحضارة لهويته لتكون متجذرة من خلال التزوير او التلفيق او الالتصاق ببعض الحضارات القديمة .

ليس هناك تاريخ مشترك اكثر من حضارات العراق، بدءا من الحضارة السومرية وهي حضارة لمجموعات بشرية في جنوب شرق الهلال الخصيب خلال الألف الخامس قبل الميلاد، والتسمية (شومر) هي تسمية أكدية لمنطقة جنوب العراق وسكانها، والتي تكرس استخدامها من قبل الباحثين، مع إعادة اكتشاف الكتابة واللغة والثقافة السومرية، في القرن١٩الميلادي(٧).

لا زال منشأ السومريين مجهولاً حتى اليوم، ولكن لغتهم تؤكد اختلافهم في النشأة عن جيرانهم الساميين والعيلامين، فهناك فرضيات حول منشأهم في بلاد الرافدين وتطورهم فيها، إلا انه لا دلائل أثرية على ذلك، وفرضيات أخرى حول نشأتهم في آسيا الوسطى، وهجرتهم نحو بلاد الرافدين، لكن كذلك البحث الأثري لا يثبت ذلك، معظم الفرضيات تستخدم البحوث اللغوية في ذلك، ومع ذلك لم توفق حتى الآن في تحديد منطقة نشوء سومر.

ثم جاء دور امبراطورية أكد اذ وحد الأكديون (الذين سكنوا شمال سومر)بقيادة سرجون بلاد سومر تحت حكم أسرة واحدة من ٢٣٧١ ق.م وحتى ٢١٩١ ق.م، وأضحت في هذه الحقبة اللغة الأكدية هي لغة الدولة الرسمية، وانتهت هذه الحقبة بعدما بزغ نجمها لأكثر من قرنين ووصلت حدودها الى البحر الشمالي (البحر المتوسط) والبحر السفلي (الخليج العربي)(٨).

ثم جاء دور العصر البابلي القديم والذي يمتد لأكثر من خمسة قرون تقريبا من ٢٠٠٤ق.م الى ١٥٩٤ق.م والذي شهد عصر قيام دور العاصمة بابل كرائدة وقائدة للمنطقة مع انضمام الكثير من حاضرات المدن المشهورة والقوية مثل ايسن ولارسا ومملكة اشنونة لتمتد حدودها ايضا في عهد ملكها الاشهر حمو رابي اقصى شمال بلاد ما بين النهرين وجنوبا الخليج العربي ليصبح سيد وادي الرافدين ولقب بالملك المعظم وملك الجهات الاربع وملك بلاد سومر وأكد وملك بلاد الأموريون نسبة الى هجرات الاقوام الامورية داخل اراضي البلاد(٩).

اما الحضارة الاشورية فقد كانت حدودها اوسع بكثير امتدت الى بلاد النوبة في السودان الافريقي في احد العهود مما يدل على عظم الجيش والامكانات العددية والتقنية وقد شملت الإمبراطورية الاشورية في شقيها القديم والوسيط خارطة العراق الحالية فضلا عن بلاد الاناضول وبلاد الشام ،وتكلمت الاقوام في هذه البلاد لأكثر من الف سنة اللغة الاشورية(١٠).

اما الامبراطورية العباسية وعاصمتها بغداد فقد شملت جميع مدن العالم الاسلامي من المغرب العربي الى حدود الصين وكانت اراضي العراق الحالية وخارطته جزءا اساسيا من هذا العالم الكبير وبغداد حاضرة العالم وقبلة العلماء .

الدولة الحديثة وابتلاع الهوية

هكذا نلحظ ومن خلال جُهد البعض، أنهم يقعون بمأزقٍ معرفي عندما يقرنون وجود الأُمّة العراقية بولادة الدولة العراقية تأسيساً على التكوين الحديث للأُمم، وتأثراً بالمدرسة الأوربية التي حصرت الهوية في البُعد القومي في مطلع القرن السابع عشر الميلادي(١١).

إنَّ الحقيقة المعرفية تقول : بأنَّ الدولة غير الأُمّة، فتغيّر الدول وتحوّلها وامتدادها وانحسارها وقيامها وسقوطها.. هو فعل من أفعال الأُمّة وضمن شروط ومقومات حركيتها التاريخية فيما تمتلكه من وعي أو نهوض أو مبادرة أو فاعلية.. أو فيما يعتريها من خمول أو ضعف أو تقهقر أو تراجع، وعليه لم يشهد عراقنا ذهاب الأُمّة بذهاب دولة بعينها، ولم تضمحل وتنتفي الأُمّة باضمحلال وانتفاء الدولة، لأنَّ الدولة فعل من أفعال الأُمّة، وهي في أحسن صورها جزء من هويتها فيما تُقره من تأثير وتوجده من تراكم عقدي أو فكري أو سياسي أو حضاري، فهي على ذلك جزء من الصيرورة في مراحلها التكوينية، أي جزء من الهوية لا كل الهوية، فهوية الأُمّة هي كينونتها الكليّة القائمة على عناصر الوطن واللّغة والعقيدة والعِرق والحضارة.. في حراك ممتزج ودائم ومتواصل لإنتاج كينونة الأُمّة في صورها الجامعة والكُليّة(١٢).

ماذا يريد من يبحث عن هوية تاريخا مشتركا اكثر من ذلك؟ واللغات القديمة السومرية والأكدية والاشورية تكلمها سكان هذه البلاد عبر الاف السنين ليأتي دور اللغة العربية لتكون سيدة المنطقة منذ ١٤٠٠ سنة كونها لغة القران وأصبحت العامل المشترك مع شعوب اسلامية تمتلك قوميات اخرى مثل الكرد والتركمان والفرس، ألم تكن القيم والعادات الاسلامية واحدة بين هذه الشعوب والعادات؟ هل اختلف الكردي عن العربي في منظومته الاخلاقية والانسانية؟

لا يمكن في اي حال من الاحوال تجريد هوية العراق الحضارية من كل هذه الامور علينا ان نفهم ونقدر تاريخ وتراث البلاد بطريقة الاعتزاز والفخر والتجذر لا بطريقة الاستهزاء او السخرية او التجريد من المحتوى والادعاء انهم شعوب انقرضت ونحن شعوب مختلفة ناتجة عن هجرات حديثة، هذا كلام الخصوم والحاقدين والاعداء وليس كلام المواطن الشريف الواعي لحقيقة تاريخة واهميته وامتداده وتجذره .

ولاجل ذلك تم اعداد استمارة بحثية هدفها التوصل الى استنتاجات علمية بشان مشكلة الهوية من جهة ومشكلة الطائفية من جهة اخرى عبر المحور التالي .

المحور الثاني

(استبيان – تحليل – استنتاج)

في هذا المحور تم عرض استمارة استبيان على فئة الاساتذة الجامعيين والمشرفين والمثقفين واصحاب الشهادات العليا لأخذ اراءهم وتطلعاتهم لمستقبل العراق، ومدى تعلقهم بالوطن، اخذين بنظر الاعتبار ان هذه الفئة تعد بمثابة النخبة المتقدمة في المجتمع والتي يعول عليها في الكثير من القضايا لاسيما اعادة بناء اللحمة الوطنية، وكان النموذج المقدم هو:

استبيان

الجنس **العمر**

المهنة **التحصيل العلمي**

ت	السؤال	نعم	لا
١	هل تفتخر بوطنك		
٢	هل تؤيد الاقاليم المذهبية		
٣	هل تعتقد ان هناك هوية جامعة لكل العراقيين		
٤	هل التدخل الخارجي سبب في ضياع الهوية العراقية		
٥	هل تنفع حضارات العراق العريقة ان تكون اساساً لهوية عراقية موحدة		

لقد تم توزيع الاستمارة على ٤٣٠ شخصية من كلا الجنسين (بمعدل ٢٧٠ للذكور ، و١٦٠ للإناث) وكانت الاحصائية العامة كالاتي :

جدول رقم (١) توزيع العينات حسب الاعمار

الاعمار	٢٥-٤٠ سنة	٤٠-٥٠ سنة	فوق ٥٠ سنة

الاعداد	١٨١	١٤٩	١٠٠

جدول رقم (٢) توزيع العينات حسب العمر والجنس

الاعمار	٢٥-٤٠ سنة	٤٠-٥٠ سنة	فوق ٥٠ سنة
الاناث	٦٧	٥١	٤٢
الذكور	١١٤	٩٨	٥٨

جدول رقم (٣) توزيع العينات حسب الشهادة الجامعية

الشهادة/ الجنس	الاناث	الذكور
دبلوم	٢٦	٣٦
بكالوريوس	٥٩	٧٢
ماجستير	٤١	٥١
دكتوراه	٣٤	١١١

بعد هذه الاحصائيات العامة عن العينات والتي اوضحت بشكل ملفت للنظر اعداد كبيرة من اصحاب الشهادات لاسيما من الذكور اذ بلغ عدد اصحاب شهادة الدكتوراه ١١١ شخصية مما يجعل هذا الاستبيان قريب جدا من نبض الضمير العراقي.

كانت نتائج الاستبيان حسب الجداول الاتية :

الجدول رقم (٤)

الموافقون على الاسئلة ١-٢

السؤال	الاناث الموافقون		الذكور الموافقون	
١	١٤٩	%٩٣	٢٥٧	% ٩٥
٢	٣٩	%٢٤	٤١	% ١٥

عند قراءة الجدول بتمعن نلاحظ بان الاجابة بنعم على السؤال الاول(هل تفتخر بوطنك)كانت مرتفعة بنسبة ٩٥ % للذكور و٩٣ % للاناث وهذا يعطي مؤشر على وجود حس وطني عالي عند هذه الفئة المهمة من الشعب وقد يكون هذا شيء طبيعي في اغلب البلدان، ولكن عند الانتقال الى السؤال الثاني (هل تؤيد الاقاليم المذهبية) نجد ان النسبة اختلفت، فقد وافق واجاب بنعم ١٥% من الذكور و٢٤ % من

الاناث وهذه هي الغاية من طرح السؤالين الاول والثاني متواليين، فالذي يؤيد اقامة الاقاليم المذهبية لازال يعتقد بان العراق وطنه ويفتخر به ونسبتهم حسب الاجابات ١٧% للإناث و١٠% للذكور، وهو تناقض واضح وخلل بنيوي وايديولوجي عند فئة مهمة ومتقدمة وتعد قائدة ومربية في المجتمع .

الجدول (٥)

الرافضون للاسئلة ١-٢

السؤال	الذكور الرافضون		الاناث الرافضون	
١	١٣	٥ %	٢١	٧%
٢	٢٢٩	٨٥ %	١٢١	٧٦%

ان جدول الرافضون للسؤالين الاول والثاني يعطي عدة مؤشرات منها :

١) نسبة الاناث الرافضة للهوية العراقية اعلى من نسبة الذكور .

٢) نسبة الاناث الموافقة على الاقاليم المذهبية اعلى من نسبة الذكور.

٣) نسبة الذكور الرافضة للأقاليم المذهبية هي ٨٥ % بمعنى ان هناك ١٥%موافقون وهم من الطبقة المثقفة والقائدة وهذا خلل واضح .

٤) نسبة الاناث الرافضة للأقاليم المذهبية ٧٦ % وهي نسبة جيدة ولكن تؤشر وجود ٢٤% موافقة وهذا مؤشر على وجود خلل ايضا، لانهم كانوا اكثر تأثرا بالتوجه الديني او المذهبي من الذكور ولعل ذلك يعود الى الصدمات العديدة للمرأة جراء تدهور الاوضاع الامنية وقلة الدعم للجانب الاسري.

ونستمر في تحليل الاجابات وننتقل الى الاسئلة من الثالث الى الخامس وكالاتي :

الجدول رقم (٦)

الاجابة بنعم على الاسئلة من ٣-٥

السؤال	الاناث الموافقون		الذكور الموافقون	
٣	١٠٩	٦٨%	٢٠٦	٧٧ %
٤	١٤٣	٨٩%	٢٠٠	٧٤ %
٥	١١٦	٧٢%	٢١٦	٨٠ %

الجدول (٧)

الرافضون للأسئلة ٣-٥

السؤال	الذكور الرافضون		الاناث الرافضون	
٣	٦٤	% ٢٣	٥١	%٣٢
٤	٧٠	% ٢٦	١٧	%١١
٥	٥٤	% ٢٠	٤٤	%٢٨

عند مراجعة الاجابات في الجدولين اعلاه نجد ان الاجابة على السؤال الثالث **(هل تعتقد ان هناك هوية جامعة لكل العراقيين)** بلغت ٧٧% للذكور و٦٨ % للإناث وهو خلل اخر يضاف الى الخلل الاول في السؤال الثاني فنسبة ٧٣% (معدل لنسبتي الذكور والاناث) من النخبة المثقفة والقائدة في المجتمع تؤمن بوجود هوية جامعة موحدة للعراقيين، وفي المقابل هناك ٢٧% رافضة او غير موافقة على وجود هذه الهوية ، فاذا كان هذا واقع الفئة المتقدمة والقائدة فكيف حال باقي الفئات الاخرى الاقل تعليما وثقافة، ولذلك نقول بانه مؤشر على دق ناقوس الخطر على وضع العراق، فضلا عن وجود اختلاف في ردة الفعل، فالذين اجابوا على السؤالين الاول والثالث بـ(نعم) معنى ذلك انهم متمسكون بارضهم وهويتهم وعندهم الاحساس بالمسؤولية التضامنية اما الذين اجابوا على السؤال الاول بـ (نعم) والسؤال الثالث بـ(لا) معنى ذلك انهم استسلموا لواقع الحال ورفضوا المشاركة في المسؤولية وتجردوا من هويتهم.

اما الموافقون على السؤال الرابع **(هل التدخل الخارجي سبب في ضياع الهوية العراقية)** فكانت نسبتهم عالية وتمثل تشخيص دقيق لواقع الحال، فنسبة ٨٩% من الاناث وافقوا وشخصوا تاثير التدخل الخارجي ومسؤوليته في تشرذم الهوية العراقية الواحدة وهذه نسبة عالية جدا ، ولكن الغريب ان نسبة الذكور كانت اقل بكثير وتسجل امامها علامة استفهام، فنسبة ٧٤% لاتمثل الطموح الوطني العراقي على الرغم من ارتفاعها ولكنها اقل من الاناث بكثير، مما يؤكد ان هناك نخبة كبيرة ومثقفة ومربية وقائدة ترفض اتهام التدخل الخارجي ومعنى ذلك ان الهوية العراقية متشرذمة من الداخل.

السؤال الخامس والاخير كان واقعا من أهم الاسئلة (هل تنفع حضارات العراق العريقة ان تكون اساساً لهوية عراقية موحدة) وهو جوهر بحثنا عن مخرج للازمة العراقية ، فنسبة ٨٠% من الذكور و٧٢% من الاناث موافقة على وجود هوية عراقية نابعة من جذور حضارات العراق تعد ظاهرا نسبة جيدة ومقبولة وقد يذهب البعض الى وصفها بالممتازة ولكن الواقع غير ذلك فعندما يكون هناك ٢٠

% من الذكور و٢٨% من الاناث وكلهم من الطبقة المثقفة الواعية والمطلعة على حقيقة حضارات العراق وتؤمن بعدم وجود هوية موحدة متجذرة تاريخيا فكيف نستطيع اعادة بناء الهوية في ظل وجود هذا الحس اللا وطني .

كيف تكون مهمة المتمسكين بوحدة العراق واعادة هويته التاريخية المتشرذمة حاليا في ظل الصراع الاقليمي والدولي اذا كان لديهم من الطبقة الراقية الواعية نسبة كبيرة تعمل بالضد من هوية عراقية نابعة من حضارة وتاريخ العراق القديم والوسيط والحديث ، اين سيكون الحس الوطني ومدى امكانية اقناع الطبقات الوسطى والدنيا من ناحية التعليم اذا كانت الطبقات العليا تشكل مجموعة ضغط مضاد

الواقع اقول ان هؤلاء الرافضون لهوية عراقية موحدة اما جاهلين بها وغير مطلعين على الحقائق بصورة صحيحة لقلة خبرة او لاي سبب اخر او يكونو مدفوعين من جهات خارجية لمصالح حزبية وفئوية وشخصية، وهؤلاء سواءا كانوا يؤمنون بها ويرفضونها حاليا بسبب الظروف، ام رافضين لها اساسا فهم يشكلون نسبة معتد بها في الجامعات والمؤسسات العراقية الاخرى، ولذلك لابد من تشخيص هذا الامر والعمل على رفع تلك النسبة ومعالجة الخلل الواضح عند بعض الاشخاص في اغترابهم عن وطنهم وهم في داخله .

ان الاجابة على السؤالين الثالث والخامس بنسب عالية لا يشكل بالضرورة ان هناك حسا وطنيا عاليا، وانما هي الطبيعة الفطرية اولا والرغبة الحقيقية في اعادة التمسك بالوطن كأرض جامعة لكل العراقيين ، وفي المقابل ان تدني نسبة الموافقين على السؤال الثاني بشأن اقامة الاقاليم المذهبية لا يدل بالضرورة على نفس وطني او عدم رغبة في اقاليم من نوع اخر جغرافية او مناطقية او حتى ادارية لان السؤال كان مباشرا ومستفزا ، ولكن واقع جغرافية العراق وديمغرافيته يؤكد لا يمكن اقامة الاقاليم في وسط وجنوب العراق الا على اساس مذهبي حتى ولو كان العنوان جغرافي او اداري .

لقد اشرت الارقام بشكل واضح الى وجود نفس طائفي ومذهبي وعشائري عند بعض الاشخاص ممن ينتمون لفئة الاساتذة والمثقفين ورغم قلة نسبتهم في الاستبيان ولكنها بداية زحف اجتاحت الطبقتين الدنيا والوسطى لتشمل اليوم الطبقة العليا المثقفة ولو استمرت الاوضاع بهذا الركود وعدم الاستجابة لصرخات الوطنيين العراقيين المتمسكين بجذورهم وحضارتهم فان الامر سيسوء بشكل اكبر في قادم الايام ، وهذا ما سيوضح في المحور التالي.

المحور الثالث

تأثير الطبقة السياسية على هوية الوطن

في الثامن من حزيران عام ١٩٨٢ عقد حزب البعث المؤتمر القطري الثامن، وكان من أهم محاور المؤتمر مناقشة قضية اساسية اطلق عليها "الظاهرة الدينية"، وكانت قرارات المؤتمر مفاجئة جدا لكثير من اعضاء الحزب وقد اقر بعضهم انه لأول مرة في تاريخ الحزب يتم النقاش بصراحة طبيعة الشعب العراقي وأسلمة المجتمع العراقي، لاسيما المجتمع الشيعي، وقد استنكر المؤتمر صعود "التدين المتطرف" بين الشباب العراقي بشكل عام والشيعة بشكل خاص، وأرجع ذلك إلى سببين رئيسين الاول عام تمثل بهزائم القومية العربية والثاني خاص تمثل في نشاطات حزب الدعوة الإسلامية الشيعي(١٣).

هذا العداء التاريخي بين الحركة الاسلامية وحزب البعث تمثل في حرب كبيرة وواسعة تجسسيه وعمليات مخابراتية وقع ضحيتها الالاف من الشعب العراقي، ولذلك كانت هناك رغبة جامحة في الانتقام والثأر عند بعض السياسيين الذين استمكنوا بعد عام٢٠٠٣ سياسيا وقانونيا واجتماعيا، وانعكست هذه الرغبة للأسف في ديباجة الدستور، وكان واضحا من السلوك والاداء الرسمي انه مبني على اساس وجود فرصة تاريخية لابد من استغلالها.

قد يرفض البعض هذا التوصيف ولكنه الواقع الحقيقي التي جرت عليه الامور، والكرد تعلموا الدرس جيدا على الرغم من الطابع العنصري لأحزابهم وبرامجهم واصرارهم ايضا على قوميتهم ولكنهم كانوا اقل وطأة من الشيعة في التعامل السياسي، وكانوا اكثر انفتاحا ومرونة ، ولذلك فان الاداء السياسي عموما ظل محكوما في الانتماء المذهبي والقومي وقد اختزل العراق في هذين الانتماءين لدرجة انه تم تهميش كل المكونات الاخرى.

والاسئلة التي تثار في هذا الاطار لماذا يختزل العراق بالصراع القومي والمذهبي؟ ولماذا التركيز على الفرعيات دون الاصول ؟ ولماذا الابتعاد عن حضارات العراق في حديث الوطن والمواطنة؟ هل هناك اهداف معينة لهذه التوجهات ؟

في تقرير اعدته لجنة تنسيق المنظمات غير الحكومية لأجل العراق NCCI ذكرت فيه ان الشعب العراقي يعاني من صعوبات كبيرة في المجالات كافة الاقتصادية والسياسية والاضطرابات الاجتماعية منذ عام ٢٠٠٣، والابرز في ذلك انعدام الأمن والاستقرار، وعلى الرغم من ذلك نجد ان هناك أعداد كبيرة من منظمات الإغاثة والمساعدة والمجتمع المدني قد تم انشائها في هذه الحقبة، ولكنهم في الحقيقة شركاء للجهات الحكومية التي تسيطر عليها الأحزاب السياسية المختلفة المتنفذة، وقد

استخدمت العديد من هذه المنظمات غير الحكومية الأموال العامة وأجهزة الدولة لخدمة أعمال الأحزاب السياسية [١٤] .

وقد اكدت المنظمة ان أهم التحديات الراهنة التي تواجه المجتمع المدني في العراق ، تتعلق بالبيئة القانونية والمؤسسية، وجدية إجراء الإصلاحات الديمقراطية والحفاظ على حقوق الإنسان، وكفاءة الاداء الحكومي والمؤسسات الأهلية والقطاع الخاص[١٥].

إذن مشكلة العراق تتمثل بالجهل السياسي والثقافي للنخب القيادية التي استلمت زمام الامور ودفة القيادة منذ عام ١٩٥٨ الى اليوم وليس منذ تأسيس الدولة الحديثة عام ١٩٢١، فالجهل بالتراث والتاريخ الحضاري وعدم التحرك للاستفادة منه بشكل واسع على مدى خمسة عقود كان له الاثر الكبير في وجود فواصل بين الاجيال الناشئة وهويتهم، فجميع الاحزاب والحركات ظلت حبيسة الافكار القومية والطائفية والأممية وكلها منافية تماماً للوحدة الوطنية والهوية العراقية المتجذرة في التاريخ العميق الموغل في القدم.

العقبة الاساسية امام تنامي المواطنة والاعتزاز بالهوية العراقية هي تشرذم الفئات المجتمعية بين هويات فرعية تراها اكثر فائدة واعمق انتماء، فلا يوجد اتفاق بين الفئات المختلفة على تاريخ وطني مشترك، فهناك اختلاف كبير على التاريخ الاسلامي والعربي وهناك اختلاف تاريخي اخر بين الكرد والعرب، فضلا عن التيارات السياسية المختلفة على أيديولوجيات سياسية ومنتمية الى مشاريع ابعد من الوطنية وجرى تفخيمها على حساب وطنية العراق.

فالتيار العروبي يمجد بالأمة العربية ويسعى الى تنقية الدم العربي، ويركز على مفاخر وانتصارات وازدهار الحقبة العربية من الدولة الاسلامية ويبرز المفاصل الايجابية ويتغاضى عن السلبية ولا يعترف بها ولايواجهها، والتيار الاسلامي الشيعي يركز في التاريخ على مظالم اهل البيت ومصائب العلويين ويعزوها الى الحقبة العربية الاسلامية، ويهملون تماماً كل الجوانب الايجابية من الابداع الحضاري العربي الاسلامي بشكل عام والعراقي بشكل خاص، اما التيار الاسلامي السني، فقد انقسم في العقدين الاخيرين الى متطرف بل شديد التطرف واخر نوعا ما معتدل وكلا الاتجاهين يعتمد في منهجيته الاسلامية على الخصومة مع التيار الشيعي اولا وعلى العقائد ثانيا في اهمال واضح للتاريخ والتراث والعمق الحضاري.

أما الكرد فلهم فهما خاصا بالتاريخ العراقي يبتعد تماما عن التوجه نحو عراق موحد، وقد بدأو كتابة تاريخ الكرد على ضوء مفاهيم جديدة محاولين اختزال تاريخ العراق ضمن تاريخ الكرد وليس العكس، في الوقت الذي يرفض اصحاب التوجهات اليسارية من شيوعيين وماركسيين وتياراتهم الاخرى مبادي

الوطنية والتركيز على الطبقات وليس الدول واهمال التاريخ ليكون عامل حاسم في بناء هوية وطنية مستقلة، ومبادئهم تعتمد الاممية العالمية .

ومن هذه المفاهيم والمنطلقات نستطيع القول ان مواجهة التاريخ والماضي للبلاد ضرورة ملحة في الوقت الحاضر، فإعادة قراءة التاريخ الحضاري بطريقة وطنية موحدة تعتمد على ثلاث ركائز الاولى الجغرافية كأرض وحدود تقريبا تضمنت كل الحضارات القديمة والحديثة، والثانية الحضارة التي وصفتها مؤسسات عالمية بانها مبتكرة ورائدة، والركيزة الثالثة الشعب الذي اشترك في تاريخ طويل من المعاناة والمظالم نفسها، كل ذلك يساعد كثيرا في القضاء على الانقسام والتشرذم، فالاتفاق على تاريخ حضاري وطني واحد يفتخر فيه كل عراقي من الشمال الى الجنوب الاشوري والكلداني والسومري والأكدى والبابلي والشيعي والسني والكردي والتركماني والايزيدي وهو يمثل الحجر الأساس في الاتفاق على حاضر الوطن ومن ثم على المستقبل.

في أنموذج لهوية جديدة نشأت حديثا ولا تمتلك عمقا حضاريا متأصلا ولكنها اثبتت وجودها وصاغت هويتها الحديثة واصبحت رقم واحد في العالم متمثلة في الولايات المتحدة الامريكية، ففي كتاب مهم لهنتنغتون عنوانه (من نحن – التحديات التي تواجه الهوية الامريكية) حاول فيه عرض التغيرات الجارية في سمات وجوهر الهوية الوطنية الامريكية البارزة، والسمة البارزة هي الاهمية التي يعزوها الامريكيون لهويتهم الوطنية مقارنة بالهويات الكثيرة الاخرى، اما الجوهر فيشير الى ما يظن الامريكيون انهم يمتلكونه بشكل مشترك ويميزهم عن الشعوب الاخرى [١٦].

ويقدم هذا الكتاب ثلاثة براهين اساسية على وجود هوية امريكية مميزة وبارزة:

الاول : تنوعت سمة هوية الأمريكيين الوطنية الاساسية خلال التاريخ .

الثاني : عرف الامريكيون خلال قرون في درجات مختلفة ، جوهر هويتهم بلغة العرق والاثنية والايديولوجيا والثقافة.

الثالث : كانت الثقافة الانغلوبروتستانتية مركزية في الهوية الامريكية لثلاثة قرون [١٧].

ان الدستور الامريكي الذي صدر عام ١٧٨٧م كان له الاثر الكبير في صناعة هوية امريكية مستقلة عن البلد الام بريطانيا العظمى على الرغم من الجذور والتاريخ واللغة والانتماء والدين والمذهب، هذا التشريع الصحيح والرائع صنع الامجاد للامة الامريكية لأنه راعى التعددية والانتماءات والاختلافات وركز على الارض والعادات والتقاليد التي نشأت مع المناخ الجديد، ومع انه لا يمتلك تاريخا عميقا ،لكنه صنع تاريخه بنفسه من خلال حرب الاستقلال التي كانت لوحدها عمقا حضاريا كبيرا .

أنموذج اخر اعتمد هوية وطنية موحدة على الرغم من الاختلافات الواسعة، وهي ماليزيا التي تعد أنموذج لمجتمع متعدد الأعراق، هذه الدولة حديثة التكوين السياسي (عام ١٩٦٣م) تعيش واقعا اجتماعيا صعبا وفريدا فالاختلاف بين الطوائف كبير يشمل اللغة والقومية والدين والثقافة بل من الصعوبة ان تجد مشتركات بينهم عدا الجغرافية متمثلة بالأرض التي تجمعهم ،ومع ذلك نجدها اليوم من افضل واسرع الدول تقدما ونموا واصبحت من اقوى اقتصاديات القارة الاسيوية(مجموعة النمور الاسيوية) وهي في المراتب الاولى دائما سياحيا وصناعيا.

يرتكز المجتمع الماليزي على ثلاثة اعراق اساسية (الملايو٥١ % السكان الاصليين ١١%، الصينيين٢٣% ، الهنود٧ %) وقد مثلتها ثلاث احزاب رئيسة هي حزب(UMNO) ويمثل الملايو، و(MCA) ويمثل الصينيين ،وحزب (MIC) يمثل الهنود، ولكن النسبة الاكبر والاكثر تأثيرا هم الملايو، اما سكان الارض الاصليين والذين يطلق عليهم(الجنس الاصلي او أبناء الارض Bumiputra) وتعني الذين يرتبطون بالارض فنسبتهم قليلة ويتواجدون عادة في سارواك وصباح الجزء الشرقي من ماليزيا [١٨] .

تعرضت ماليزيا الى ازمة بعد انتخابات عام ١٩٦٩ نتج عنها صراع عرقي راح ضحيته المئات من الاطراف المتصارعة لاسيما بين الملايو والماليزيين من الجذور الصينية، وفي كانون الثاني١٩٧٠م جرى استحداث وزارة الوحدة الوطنية مع انشاء المجلس الوطني الاستشاري، وقد اعد مجلس العمليات الوطني تقريرا مهما اشار فيه " إلى دعوة ممثلي مختلف المجموعات في البلاد – السياسية والدينية والاقتصادية وغيرها – للعمل في مجلس استشاري، إذ ستتم مناقشة القضايا التي تؤثر على وحدتنا الوطنية بشكل كامل وبصراحة كاملة" وكانت من اولويات الوزارة والمجلس وضع الحلول الدائمة وليس السريعة لمشاكل البلد لاسيما العرقية والعنصرية والتعصب ومعالجة الفقر والتفاوت الاقتصادي بين فئات المجتمع مع ايجاد ضمانات كافية لعدم تكرار مأساة الصراع العرقي[١٩] .

بعد أن جرى ايقاف الشغب العرقي اجتمع أعضاء التحالف الممثل للأعراق الثلاث، واتفقوا على ضرورة تضييق الفجوة الاقتصادية بين الاعراق، عن طريق توزيع الثروة بشكل عادل، وضرورة الاقرار بحقوقهم في المواطنة ومشاركتهم في الاقتصاد والادارة [٢٠].

جرى الإعلان ايضا عن إعداد مبادئ توجيهية تشكل العقيدة الوطنية للبلاد، وتم وضع ايديولوجية رسمية شاملة تلبي طموحات كل فئات المجتمع الماليزي واعلنت في ٣١ اب١٩٧٠م الذكرى السنوية الثالثة عشرة لعيد الاستقلال (مرديكا Merdeka) وحملت اسم (روكونيجارا Rukunegara) وهي

تركز على الايمان بالله والولاء للملك والبلد وتطبيق الدستور وحكم القانون والسلوك والاخلاق الحسنة وكان شعارها (القومية ، الدين ، الامة) ومضمونها (الاخلاق ، السلم ، التعايش)[٢١].

إن تنفيذ هذه الايديولوجية الجديدة عكس اهمية التوافق الوطني في هذه المرحلة وضرورة التزام الاحزاب السياسية بمهمة خلق ماليزيا الموحدة والسيطرة على الاوضاع الاجتماعية بالابتعاد عن التشنجات مع ضرورة اعادة النظر بالنظام الاقتصادي ليكون اكثر عدالة وانصافاً بما يسهم في تقدم الامة الماليزية [٢٢].

ان النماذج التي ذكرت اعلاه بشأن الهوية الامريكية والايديولوجية الماليزية كانت خير دليل على امكانية خلق هوية في حالة عدم وجودها، وامكانية ردب الصدع اذا ما تعرضت الى الانكسار وامكانية تنظيمها فيما اذا كانت مبعثرة، بمعنى انها تحتاج الى آليات لإعادة لملمتها من خلال التشريعات والقوانين والحوارات والاتفاقات.

الحالة الاخيرة تنطبق على الهوية العراقية فأنها موجودة فعلا وقوية ومتجذرة في عمق الارض العراقية ولكنها تعرضت لعدة ازمات وتشوهات وارادات من خارج الحدود لإلغائها وتدميرها ، ولذلك ما نحتاج اليه اليوم في العراق هو تنظيمها بآليات منتظمة واسعة ومرنة تعيد اليها الحياة وتلملم شتاتها.

المحور الرابع

امكانية العودة الى هوية عراقية جامعة

ان الغاية من هذه الدراسة هي ان اقدم امامكم بعض الافكار حول المسار المستقبلي للعراق وكيف علينا ان نمضي من اجل تحقيق هدفنا لتطوير البلد وتحويله الى دولة مستقرة تسير بخطوات ثابتة نحو النمو والتطور، ولتحديد بعض الاساسيات التي يجب اتباعها على المدى القريب من اجل قيادة المؤسسات الى رحلة طويلة تجاه الهدف الاساس وهو تاسيس دولة اتحادية ديمقراطية تعددية متقدمة في جميع المجالات .

إنَّ وعي الإنسان بالانتماء والتجذّر الى الارض التي ولد فيها ، يساهم كثيرا في تكوين شخصيته المعتدلة ويجعل منه مستقرا ثابتا مبدئيا متدرجا في النمو والتطور بشكل ايجابي ،وهذا لا يتم إلاّ بالهوية، ووضوحها وتماسكها وفاعليتها لأنها تُنتج حِراكاً وفعلاً إنسانياً يستعصي على التهميش أو المصادرة .

غياب الهوية وضعف الاندماج الوطني يجعل من الانسان مربكا في التفكير متعدد الانتماءات خالي من المبادئ والثوابت ، وعندما يكون المجتمع في البلاد بهذه الصفات يصعب النهوض بهذا البلد تنمويا لاسيما من الناحية السياسية والاقتصادية .

مهما كانت صعوبة الاوضاع التي عاشها العراق في العقدين الاخيرين، ومهما تعددت التحديات التي تواجه هذا البلد، فأن الحل بيد العراقيين انفسهم وهم من يقررون، فقراءة متأنية وبتمعن لكل ما يجري الان سيبصر وجود ضوء في اخر النفق وامل واضح في وسط السماء موجود وعابر للضباب والظلام، وهي ترسل رسائل اطمئنان على ان الليل لابد ان ينجلي والفجر لابد ان يأتي وان المستقبل يبشر بعراق جديد .

إن التجربة السياسية التي نتجت عن احداث ما بعد ٢٠٠٣ اوصلتنا جميعا الى قناعة واقعية بان الانتماء الطائفي والقومي لا يغني ولا يسمن من جوع وغير مجدي على الاطلاق وما جلب للبلاد والافراد والاحزاب الا الخراب والدمار وما استفاد من هذه الاوضاع الا تجار الحروب ومن يدافع اليوم عن هذا النظام فلابد ان يصنف بانه من تجار الدم والدمار.

وبالتالي فلابد من العودة السريعة والمقننة والمتدرجة نحو الانتماء للعراق ولهويته الوطنية التاريخية والثقافية والانسانية والاجتماعية النابعة من تاريخه والمتجذرة في أرضه والواضحة في ثقافته وحضارته وابتكاراته وابداعاته وهي القاسم المشترك الوحيد الذي يلم شتات جميع العراقيين متجاوزين فروقهم الطائفية والقومية والدينية والمذهبية والعرقية .

وفي هذا السياق يقول الحكيم جبران خليل جبران في احدى رواياته وكان يصف مسالة العمل " **فالحق اقول لكم ان الحياة تكون الحقيقة ظلمة حالكة اذا لم ترافقها الحركة ،والحركة تكون عمياء لابركة فيها ان لم ترافقها المعرفة ،والمعرفة تكون عقيمة سقيمة ان لم يرافقها العمل ،والعمل يكون باطلا وبلا ثمر ان لم يقترن بالمحبة ،لانكم اذا اشتغلتم بمحبة فانما تربطون انفسكم وافرادكم بعضها ببعض ،ويرتبط كل واحد بربه**" [٢٣].

ان جبران يحاول ان يربط كل شيء بالمحبة التي يصلها في النهاية بعبادة الله سبحانه وتعالى ،فيتحدث عن الصدق والاخلاص في العمل ،عن وجوب الحركة والنشاط للانسان ليولد من جديد ، انه يوصي البشر بالتكاتف والتعاون والترابط، ويحذرهم من التباغض والتصارع والتكاسل تحت مسميات متعددة ،ويورد على ذلك اسباب عديدة منها ان الانسان مصيره واحد وهو الموت وان سعي الانسان الى مساعدة ومساندة ومناصرة اخيه الانسان تاتي بالخير على البشرية جمعاء ، اما العكس

فهذا يخرج الحياة من جوهرها التي خلقت من اجله ويجعلها حزينة وكئيبة قريبة من الانهيار والتلاشي.

من المعلوم ان جميع أوطان الارض قامت بفضل عاملين متكاملين : أولهما، توفر الواقع الجغرافي–التاريخي، وثانيهما، توفر الارادة الثقافية–السياسية ، بمعنى وجود معادلة بين الواقع التاريخي مع الارادة التي تستفيد من هذا الواقع ، واذ كان التشخيص بهذا الاتجاه نستنتج بان مشكلة العراق منذ تكوين الدولة الحديثة حتى الآن تتمثل بالجهل الثقافي–السياسي للنخب العراقية بواقع الهوية العراقية الموروثة والمتجذرة في عمق الارض وفي نفوس البشر، وعدم الاستفادة منها في اعادة صياغة البرامج التحديثية في البلاد على اساس وجود شعب عراقي واحد يمتلك هوية عراقية كبرى تتفرع منها هويات اصغر محترمة ومقدسة لا تهميش ولا اقصاء ولا الغاء لها ولا حتى تحديدها او تقليصها، فجميع الاحزاب ظلت منذ أكثر من قرن مشغولة بمشاريع خارجية قومية وطائفية وأممية منافية تماماً للوحدة الوطنية [٢٤].

إن الهوية العراقية ليست إشكالية أقليات وأكثريات كما يصفها البعض، بل أنها قيمة مفتقدة، أو أنها كانت مفتقدة على مدى زمني طويل ولأكثر من خمسين سنة، فالهوية الوطنية العراقية كانت ولم تزل في أزمة، وأزمتها القومية والدين، لقد وصل الأمر ولم يزل عند الكثير من العراقيين أن يقولوا بأنهم غير عراقيين، بل يسمون أنفسهم بتسميات أخرى وكأنه لم يستنكف فقط هوية العراق، بل يلغي وجودها عنده [٢٥].

ستكشف الأجيال القادمة بأن الهوية الوطنية تتشكّل من مرآةً هائلة تظهر عليها صوراً حقيقية للأنا العراقية والـ (نَّحن) العراقية، وستتبدى كل منهما بوصفهما مجالاً حيوياً لتكوين وعي جديد في المستقبل.. وعي وطني يدرك قيمة العراق (الباقي والمفتقد والمستلب) وحدة غير متكاملة أبداً بفعل حدة العواطف وثرثرة الخطاب وشناعات السياسة وبلادة السلطة[٢٦].

إن العراقيين بحاجة ماسة لترسيخ "الهوية" وجعلها وعياً جمعياً يعتز بالتراب والثقافة والتاريخ إزاء التحديات المعاصرة والمستقبلية، وهي من أصعب العمليات التاريخية بفعل كثرة انتماءات العراقيين وكثافة أهواءهم وتباين هواجسهم وتعددية نزوعاتهم التي لا تعرف أين تذهب خيوطها المتشابكة من فئوية وجهوية ومحلية وعشائرية وقبلية وطائفية وحزبية.. الخ من الولاءات التي تشتّت الهوية في بحر من التناقضات [٢٧].

ان الثقافة العراقية متنوعة في تكويناتها وألوانها المتعددة كأساس حقيقي شامل، ولكن مع وجود ثقافة عراقية موحدة تسيطر الثقافة العربية عليها وتشاركها ثقافات لأقليات متنوعة : السريانية الآرامية

والعبرانية والاثورية والكلدانية والكردية والتركمانية والصابئية واليزيدية والارمنية.. الخ وهذه المرآة مثقلة بالموجودات والمعاني والخصائص والأصول والأشكال والموروثات والتقاليد والتواريخ السكانية.. تجمعها كلها بيئتنا العراقية، فالهوية تعكس هذا التنوع وتترجمها إلى العالم تعبيراً عن واقع لا يمكن نكرانه[٢٨] .

بعد كل ذلك فأن أهم مبدأ يجب العمل عليه هو اعادة قراءة التاريخ العراقي قراءة وطنية عراقية صرفة بعيدا عن القراءات المتعددة المتفرعة على اسس مختلفة ، وتوحيد تلك الرؤية التاريخية في ايديولوجية وطنية واحدة تعمم على كل شبر من العراق تتضمن مبادئ اساسية للموظفين ولكل دوائر الدولة داخل العراق وخارجه، وسياقات محددة تعبر عن تقديس الوطن، فضلا عن اناشيد للأطفال، ومسابقات للمدارس، واغاني وطنية، وبرامج توعوية متقدمة تفتتح بها كل المهرجانات والمؤتمرات المحلية والدولية.

ولذلك يعتقد الباحث وفقا لكل المعطيات التي وردت في هذا البحث ان هناك امكانية واضحة لاستعادة هويتنا العراقية الجامعة الموحد ولكنها تتطلب ارادة سياسية وضمير انساني واخلاص النوايا فضلا عن الالتزام الديني قبل أي شيء اخر .

الخاتمة والاستنتاجات

في اطار امكانية العودة الى هوية عراقية جامعة موحدة تشمل كل العراقيين، وقد يجد البعض صعوبة الخوض في هذه الافكار لتشرذم وانقسام المجتمع مذهبيا وفكريا وسياسيا ولكن الواقع العملي يؤشر بشكل واضح وجود هكذا امكانية من خلال اعداد قائمة معايير واسس تسير عليها النخبة الواعية والمثقفة التي تريد للعراق خيرا ووحدة حقيقية بالأفعال لا بالأقوال:

اولا : كسب ثقة جميع المكونات وفقاً لمبدأ التسامح والعفو والشراكة في كل شيء.

ثانيا : المرونة في التعامل السياسي وعدم الانغلاق .

ثالثا : العودة الى قيم الاسلام الحقيقية وتوجهيها نحو التأخي والتالف .

رابعا : التخطيط لبناء عقيدة وطنية موحدة متفق عليها من جميع العراقيين.

خامسا: توجيه سياسة التعليم الحكومي والاهلي نحو تمجيد الوطن.

سادسا : اعادة تقييم للبيروقراطية العراقية وتوجيه جميع الموظفين في السلك المدني نحو خدمة العراق وجميع العراقيين وعدم التعامل على اساس الطائفي او القومي او العرقي.

سابعا : اعتماد القيم الاقتصادية العالمية لبناء اقتصاد عراقي فعال .

ثامنا : العمل على ضمان علاقات خارجية جيدة وحسنة وغير عدائية مع الدول المؤثرة في الواقع والمجتمع العراقي أو ضمان حياديتها على الاقل.

هذه الخطوات الاساسية والمعايير المهمة والاسس الرئيسة التي ينبني عليها اعادة بناء وحدتنا الوطنية وهويتنا العراقية واذا ما دققنا في كل تفاصيلها نجدها موجودة ومطروحة ومصرح بها من كل السياسيين ولكنها اقوال بدون افعال والمطلوب اليوم ان تتوحد النوايا مع السلوك، الدواخل مع الظواهر، التشريع مع التنفيذ، يقول الله عز وجل في محكم كتابه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ، كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ)**(٢٩)

ومعنى الاية واضح ان يكون الانسان مخلصا في النوايا ومتطابقا في افعاله مع اقواله ونواياه.

وهذا ليس منة او منحة من احد ان يتخذ السياسي من هذه المعايير والمباديء منهاجا عمليا يسير عليها بخطوات ثابتة وروح عراقية وقلوب صافية تمتليء بالمحبة والوئام والتعاون وحب الخير للاخر واخلاص النية، بل هي واجب وفرض، ان لم يكن للسياسي دين يؤمن به نحو هذا المسير، فلابد من وجود ضمير بشري وحس انساني وفطرة خلقية بالاتجاه نحو الخير والحق وخدمة المجتمع والبلد، والذي يسير بهذه الروح لابد له من النجاح ومعه نجاح العراق.

الهوامش والمصادر

(١) الجرجاني، علي بن محمد السيد الشريف، **معجم التعريفات** ،تحقيق ودراسة : محمد صديق المنشاوي ، دار الفضيلة للنشر والتوزيع ، د.ت، ص٢١٦.

(٢) مبروك بو طقوقة وأ. شيهب عادل، **الثقافة والهُوية – إشكالية المفاهيم والعلاقة**، جامعة جيجل/ الجزائر، الموقع الالكتروني : http://www.aranthropos.com

(٣) المصدر نفسه .

(٤) اليكس ميشيللي ، **الهوية** ، تر: د علي وطفة ، دار النشر الفرنسية: Presses universitaires de France، دمشق ، ١٩٩٣، ص٣٣.

(5) Erik H. Erikson, **Childhood and Society**, PALADIN Grafton Books, London,1977, p.46.

(6) Erik Ericson, **Identity: Youth and Crisis**, Norton, New York, 1968, p.336.

(٧) طه باقر ، **مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة** ،**الوجيز في تأريخ حضارة وادي الرافدين** ، ج١، ط٢ ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٦ ، ص ٢٥٤–ص٤٠٥.

(٨) المصدر نفسه ، ص٣٦١–ص٣٨٠.

(٩) المصدر نفسه ، ص٤٣٢.

(١٠) المصدر نفسه ،ص٤٧٣-ص٥٤٦.

(١١) حسين درويش العادلي ، **الهوية العراقية وضرورات التشخيص والصيانة**، مجلة ميزوبوتاميا، كتاب- يقظة الهوية العراقية، العدد ٢٠، مركز دراسات الامة العراقية، جنيف، حزيران ٢٠١٠، ص٣٢ .

(١٢) المصدر نفسه .

(13) By Amatzia Baram, October , **From Militant Secularism to Islamism: The Iraqi Ba'th Regime 1968-2003**, OCCASIONAL PAPER , October 2011, p.6.

(14) **Iraq's Civil Society in Perspective** , NGO Coordination Committee for Iraq, NCCI April 2011, p.22.

(15) Ibid, p.23.

(١٦) صموئيل هنتنغتون ، **من نحن - التحديات التي تواجه الهوية الامريكية**، دار الراي للنشر، دمشق ،٢٠٠٥ .

(١٧) المصدر نفسه.

(١٨) للمزيد انظر: اسراء كاظم جاسم الحسيني، **التركيب الاثنوغرافي لسكان ماليزيا وأثره في قوة الدولة (دراسة في الجغرافية السياسية)**، اطروحة دكتوراه غير منشورة ،كلية التربية للبنات ،جامعة بغداد ،٢٠١٣م، ص١٥٥.

(١٩) ماهر جبار محمد علي الخليلي، **مهاتير محمد ودوره في تحديث ماليزيا ١٩٦٩-١٩٩١م**، اطروحة دكتوراه غير منشورة ، كلية الاداب ،جامعة بغداد،٢٠١٤م ، ص٦٣ .

(٢٠) اسراء كاظم الحسيني ، المصدر السابق ، ص١٥٦.

(٢١) محسن محمد صالح ،**النهوض الماليزي قراءة في الخلفيات ومعالم التطور الاقتصادي** ، مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية ، ابو ظبي ، ٢٠٠٨م ، ص٥٠.

(22) Abdul Rashid Moten, **Government And Politics In Malaysia, Cengage Learning Asia Pte Ltd, 2008, p.31.**

(٢٣) جبران خليل جبران ، **المجموعة الكاملة** ،ج١، مكتبة النهضة ، بغداد ، ١٩٦٨م ، ص٩٧ .

(٢٤) سليم مطر، **يقظة الهوية العراقية**، مجلة ميزوبوتاميا، العدد٢٠، مركز دراسات الامة العراقية، جنيف، حزيران ٢٠١٠، ص١٣.

(٢٥) د. سيّار الجميل، **أهمية الهوية العراقية**، مجلة ميزوبوتاميا، **يقظة الهوية العراقية**، العدد ٢٠، مركز دراسات الامة العراقية، جنيف، حزيران ٢٠١٠، ص٤١.

(٢٦) د. سيّار الجميل، **أهمية الهوية العراقية** ، المصدر السابق ، ص٤٢.

(٢٧) المصدر نفسه.

(٢٨) المصدر نفسه، ص٤٣.

(٢٩) سورة الصف ، الايات (٢-٤) .